من أنماط التصوير القرآني

" قراءة في عطاء الكلمة وتجلياتها "

د . وائل علي السيد

أستاذ مساعد بكلية التربية –

جامعة عين شمس

المقدمة

شغل موضوع الصورة الفنية حيزا كبيرا في الدراسات النقدية والأدبية ، وهناك بحوث سابقة عن الصورة الفنية في الشعر العربي عامة ، وفي الشعر الجاهلي ، وفي شعر بعض الشعراء خاصة [١]

وقد اقتصرت بحوث القدماء وكثير من المحدثين على ما يعرف بعلم البيان ، وانشغلت الدراسات البلاغية بالصور الجزئية كالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز ، أما الصورة الفنية في النقد الحديث فهي تتجاوز هذا الفهم إلى ما هو أبعد من ذلك ، حيث تتناول صورة العالم الخارجي ، وصورة العالم الباطني ، وتنشئ علاقات وطيدة بين النص والموروثات الثقافية والعقدية والميثولوجية للبيئة التي عاشها المبدع .

وليس ضروريا أن تشتمل الصورة على ألوان بيانية ، فربما تكون الألفاظ فيها على حقيقتها ، وفي ذلك يقول دكتور محمد غنيمي هلال : " والوصول إلى هذه الصورة قد يكون بنظم الألفاظ وحدها ؛ وذلك إذا كان الكلام جاريا على الحقيقة "[٢]

وعلى هذا فإن المفهوم الجديد للصورة يعتبرها عبارات حقيقية الاستعمال، ومع ذلك فهي تشكل صورة دالة على خيال خصب، ويستخلص من الاتجاهات الحديثة المتعددة نظرة

---

(١) انظر على سبيل المثال :د / نصرت عبد الرحمن :الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث ، مكتبة الأقصى ، ط ٢ ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م - د / نعيم اليافي : تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث - سعد أحمد محمد حاوي : الصورة الفنية في شعر امرئ القيس : ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٩٨٣م - عباس محمد رضا : الصورة الشعرية عند النابغة الذبياني ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٨٧م - د / سعيد حسون العنبكي : جماليات تلقي الصورة الشعرية في القصيدة الجاهلية : ، بحث بمجلة الأستاذ ،ع ٢٠٦ ، ٢٠١٣م .

(٢) د. محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ط ٦ ، ٢٠٠٥ م ، ص ٢٧٠

متكاملة للمفهوم الجديد يتبناه، فالصورة تشكيل لغوي، يكوّنها خيال المبدع من معطيات متعددة، في مقدمتها العالم المحسوس .

وقد استوقفتني الصورة الفنية في القرآن الكريم كثيرا ، فحاولت أن أستكنه أسرار الألفاظ ، وأبحث عما وراء الآيات من دلالات تتجاوز حدود الظاهر ، مما عجز عن الوصول إليه الشعراء ، ومما دفع العرب إلى أن يتهموا القرآن تارة بأنه شعر ، وتارة بأنه سحر ، وأخرى بأنه أساطير ، وما ذلك إلا لأنهم عجزوا أمام صوره العظيمة ، وأدركوا مدى سمو ذلك الوحي المنزل عن أن يأتي به بشر .

أهمية البحث : تصير هذه الدراسة بذلك إثباتا لوجه من وجوه إعجاز القرآن في مجال التصوير الفني ، ودليلا على عطاءاته المستمرة التي لا تتوقف ، المتدفقة التي لا تنضب ، وعلى أنه صالح لكل زمان ومكان ، ولا بد من أن كل زمان سيكتشف فيه جديدا ، وأن كل باحث عن الحق سيجد فيه ضالته ، وقد التزمت في دراستي بالحدود الشرعية في فهم النصوص ؛ حتى لا نقع في زلات التعارض بين النقل والعقل .

ومن الدراسات السابقة : دراسة نشرت في سوريا بعنوان " وظيفة الصورة الفنية في القرآن " للباحث عبد السلام أحمد الراغب ، تحدث فيها المؤلف عن مقومات الصورة الفنية في القرآن الكريم ، وعن أنواعها (المفردة والسياقية والمتقابلة) ، وعن وظائفها القريبة والبعيدة للصورة ،، ثم يقول مجملا هذه الوظائف : " فوظيفة الصورة القرآنية، لا تهدف إلى تصوير المحسوسات من أجل التصوير فقط، بل إنها تريد تحقيق غرض ديني من وراء التصوير الحسي "[٣] ، والدراسة الثانية بالأردن بعنوان " التشكيل البلاغي للصورة الفنية في القرآن الكريم " وهي رسالة دكتوراه للباحث محمد محمود صالح قاسم[٤] ، وقد نحا فيها صاحبها منحى كلاسيكيا ، فتحدث عن الصورة الإشارية من خلال ما فيها من كنايات ومجازات ، وتحدث عن الصورة الاستعارية والصورة التشبيهية.

---

(٣) عبد السلام أحمد الراغب : وظيفة الصورة الفنية في القرآن ، فصلت للدراسات والترجمة والنشر ، حلب ، ط ١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م ، ص ٩٦ .

٤ - محمد محمود صالح قاسم : التشكيل البلاغي للصورة الفنية في القرآن الكريم ، رسالة دكتوراه بكلية الآداب جامعة اليرموك ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .

ويتكون هذا البحث من أربعة محاور هي : الصورة الغيبية التجريدية ، والصورة البشرية ، والصورة الحيوانية ، والصورة الكونية ،وليس البحث إحصاء لكل الصور القرآنية ، ولكنه عرض وانتخاب لبعضها ، بغرض توضيح الفكرة ، وتأييدها بالأدلة ، لهذا أظن أن دراستي تلك تتميز عن سابقتيها بجدة المنهج ، ووضوح الغرض ، واختلاف التناول ، والله أسأل أن يهديني إلى سواء السبيل .

أولا : الصورة الغيبية التجريدية

تختص بعض الصور الفنية في القرآن الكريم بكونها تجريدية ، بحيث ترى الصورة مجردة بعيدة عن أي ملمح من ملامح التجسيد ، وكان هذا أمرا ضروريا وطبعيا فيما يخص شئون العقيدة ؛ لأن العرب القدماء كانت عقليتهم لا تتصور شيئا مجردا ، وإنما تميل إلى أن تجعل له جسما ، ومن هنا جعلوا للآلهة صورا وتماثيل ، ولما جاء الإسلام حرّم على أتباعه تلك الصور .

وأبرز صورة تتجلى فيها سمة التجريدية صورة الذات الإلهية ، وخير مثال على ذلك نجده في سورة الإخلاص ، يقول تعالى : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ " [٥]

وإذا كانت الأشياء عند العربي قد استحال عليه أن يتخيلها إلا إذا وجد لها شبها ، فإن هذه السورة تصرف ذهنه عن أي صورة تسبب له فسادا في العقيدة ، وترسم له صورة مجردة لله سبحانه وتعالى ، تتجلى فيها أربعة عناصر :

١- الأحدية : وهي أحدية الوجود ، فيعلم الإنسان أنه لا حقيقة في الكون مطلقة إلاه .
٢- الفاعلية : فهو الصمد الذي لا بد للقلب ألا يتجه إلا إليه ، ولا تقضى الحاجات إلا به
٣- نفي المماثلة : وفي هذا التقرير هدم ونقض لكل العقائد الباطلة التي لم تتصور الإله واحدا أو مجردا .
٤- نفي الصفات البشرية : لأن من له الكمال لا يجوز له والد ولا ولد . [٦]

(٥) سورة الإخلاص ، الآيات ١ : ٤

لذلك فلا عجب أن يكون من أسمائها (سورة التجريد) مع كونها (سورة الإخلاص) ، حيث إن هذا الفهم هو ما نخرج به من تأملنا في صورة الإله جل وعلا في هذه السورة .[٧] ، قال القشيري " ويقال التوحيد التجريد، وعلامة صحته سقوط الإضافات "[٨]

وقد لاحظ ابن عاشور أن الْفَخْر الرازي عقد في «التَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ» فَصْلًا لِأَسْمَاءِ هَذِهِ السُّورَةِ فَذَكَرَ لَهَا عِشْرِينَ اسْمًا ، ومنها التَّجْرِيدُ [٩] ، ولو تتبعنا صورة الإله وسمة التجريدية في القرآن لوجدناها جلية في كثير من المواضع في مثل قوله تعالى : " لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ "[١٠]، وفي قوله : " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ "[١١]، ولذلك كان " من مصادر الخطأ في باب المعرفة أن نتجاوز قدرنا في باب التصورات والقوانين فنخضع الذات الإلهية، وصفاتها لتصورات مقيسة على الخلق. إذ كل ما خطر ببالك، فالله بخلاف ذلك " [١٢]

ثانيا: الصورة البشرية

نجد في القرآن الكريم عناية بالغة بصورة الإنسان ، فهو يهتم بتصوير الحالات النفسية والوجدانية والاجتماعية الخاصة به ، وقد نرى في الصورة البشرية وصفا للملامح

---

(٦) انظر : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي : التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٨٤ هـ ، ٣٠ / ٦١٩ : ٦٢١

(٧) التجريد في علم البيان له مفهوم مختلف تماما ، قال النيسابوري : "وإنما يلحقها التجريد والترشيح إذا عقبت بذلك. فمتى عقبت بصفات ملائمة للمستعار له سميت مجردة، نحو: ساورت أسدا شاكي السلاح طويل القناة: وإذا عقبت بصفات ملائمة للمستعار منه سميت مرشحة، نحو: ساورت أسدا وافي البراثن هصورا " انظر : النيسابوري (نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي) (المتوفى: ٨٥٠هـ) : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلميه ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ ، ١/ ٥٠

(٨) القشيري (عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (المتوفى ٤٦٥هـ) : لطائف الإشارات (تفسير القشيري) ، تحقيق: إبراهيم البسيوني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ت ، ٢/ ٤٥١

(٩) الفخر الرازي (أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي) (المتوفى: ٦٠٦هـ) : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط ٣ ، ١٤٢٠ هـ ، ٣٢/ ٣٥٧ ، وانظر :محمد الطاهر بن عاشور : المرجع السابق ٣٠/ ٦١٠ . وانظر أيضا : النعماني (أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي) (المتوفى: ٧٧٥هـ) : اللباب في علوم الكتاب ، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م ، ٢٠/ ٥٦٧

(١٠) سورة الأنعام الآية ١٠٣

(١١) سورة الشورى ، من الآية ١١

(١٢) سعيد حوّى : الأساس في التفسير ، دار السلام – القاهرة ، ط ٦ ، ١٤٢٤ هـ ، ١/ ٤٢٩

الخارجية للإنسان يعتمد على الوصف المادي الحسي ، وقد تكون الصورة كشفا لدخائل النفس ، فيسبر القرآن الكريم غورها ، ويتعمق شخصيتها.

وتختلف صورة الرجل عن صورة المرأة ، بحسب ما يقتضيه السياق ، وما تعرضه الفكرة القرآنية ، كما أن المتأمل في الآيات يجد مراعاة للتحولات النفسية والمنزلة الاجتماعية .

فالرجل يأتي في صورة نبي ، وليس كل الأنبياء لهم صورة مفصَّلة في القرآن الكريم ، فهم أيضا يختلفون من حيث دورهم الذي يقومون به ، والأمم التي أرسلوا إليها ، والحقبة التاريخية التي كانوا فيها ، والمدة الزمنية وأعمارهم التي عاشوها .

ولعل موسى عليه السلام أكثر الأنبياء ورودا في القرآن ، وصورته أكثر الصور التي نالت حظا كبيرا من التفصيل ، لذلك نرى فيه صورة الإنسان الثائر ، والزعيم القوي الذي يرمز للتحدي والإباء ، وهو يواجه أعتى صور الطغيان المتمثلة في فرعون ، ويسوس أكثر الشعوب عنادا وعتيا وهم اليهود .

ونجد في القرآن رسما للملامح الخارجية لموسى عليه السلام ، أي الصفات الجسدية والحسية ، ويتجلى ذلك في آيات كثيرة مثل قوله تعالى " فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ "[١٣]، والكناية في هذه العبارة أكثر دلالة على ما يتمتع به نبي الله من القوة والشدة .

ونرى رسما لملامحه النفسية في مثل قوله " وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ " [١٤]، وفي قوله تعالى " وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ " [١٥] ، والمتأمل للآيتين يرى في شخصية موسى عليه السلام صورة الإنسان الحادة طباعه ، كثير الانفعال ، ، وتزداد العصبية وتشتد الحدة عندما نراه وقد أراد أن يقتل رجلا آخر ، " فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا " ، وتأتي لفظة (يبطش) محملة بدلالات القوة والغلبة ، وتكشف عن نموذج للقائد العصبي المزاج المندفع ، ومع ذلك فهو يتمتع بقوة نفسية ومعنوية ، أيدتها المعجزات الحسية الخارقة التي أوحى الله بها إليه ، وهذا الوصف لموسى عليه

(١٣) سورة القصص ، الآية رقم ١٥
(١٤) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٥٠
(١٥) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٥٤

السلام هو ما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يشبه به عمر بن الخطاب حين قال له : " وَإِنَّ مِثْلَكَ يَا عُمَرُ كَمَثَلِ مُوسَى، قَالَ: " رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ "[١٦]

ومن صور الرجال التي عني القرآن الكريم برسمها ، صورة الطاغية متمثلة في فرعون ، وتتجلى صورة الكريم في إبراهيم عليه السلام ، ونرى صورة البخيل في أصحاب الجنة ، وتظهر صورة العالم في الخضر عليه السلام صاحب موسى ، ونرى صورة الابن البار وصورة الابن العاق في سورة الأحقاف ، وصورة صاحب الثراء الفاحش في شخصية قارون ، إلى غيرها من الصور البشرية .

وللقرآن الكريم فن خاص في عرض هذه الصور ، فتارة الصورة مفصلة في قصة طويلة كقصة قارون ، وتارة تكون في عبارة موجزة قصيرة تنم عن كل ما يمكن أن يجيش في النفس ، كصورة الأتقياء الخاشعين في قوله تعالى " وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا " [١٧]

أما المرأة فتختلف صورتها عن صورة الرجل ، لأنها لها أنوثتها التي تحرك كل جوانب حياتها ، وقد ذكر القرآن أصنافا شتى من النساء ، ومن أبرز هذه الصور النسائية وأكثرها ورودا صورة السيدة مريم أم المسيح عليهما السلام ، وقد عني القرآن برسمها رسما خاصا تلعب الأنوثة فيه دورا كبيرا فيه ، غير أن صورتها تختفي منها الملامح الخارجية ، وتهتم بالخلجات النفسية والمشاعر الداخلية ، ، ويتجلى ذلك في ناحيتين ؛ الناحية الروحية حيث إنها تعودت الاعتزال والبعد عن الناس ، والتنسك والتفرغ للعبادة وملازمة المحراب ، يقول تعالى : " كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا " [١٨] ، ويقول : " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ، فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا " [١٩]

([١٦]) أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٤١هـ) : مسند الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرين ، مؤسسة الرسالة ، ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م ، ١٤٠/٦ ، والآية الكريمة من سورة يونس ٨٨

([١٧]) سورة الإسراء ، الآية رقم ١٠٩

([١٨]) سورة آل عمران ، الآية رقم ٣٧

([١٩]) سورة مريم ، الآيتان ١٦ ، ١٧

وكل هذه الصفات أهّلتها لأن تكون مصطفاة ومطهرة ومفضلة على نساء العالمين ، ثم تلعب المشكلة النسائية دورا كبيرا في الصورة حينما تفاجأ المرأة بالحمل ثم الولادة ، فتظهر الناحية الثانية وهي الناحية النفسية التي تعانيها المرأة حينما تجد نفسها متهمة في شرفها وعفتها ، وتشعر بكرب شديد ، وتتملكها الحسرة والأسى ، فتقول : " يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا " [٢٠]

وفي القرآن الكريم صور شتى لأصناف من النساء ، تختلف نزعاتهن ونفسياتهن وأوضاعهن الاجتماعية ، ولكل شكل من أشكال الاختلاف تأثيره الظاهر على الصورة ، فنرى صورة المرأة التقية في امرأة فرعون ، وصورة المرأة الكافرة في امراة نوح وامرأة لوط ، وصورة المرأة اللاهية في امرأة العزيز ، والتي تأتي مقابلة للمرأة العفيفة السيدة مريم ، وأيضا نرى صورة المرأة الشريرة في امرأة أبي لهب ، والمرأة الحاكمة في ملكة سبأ ، وقد يكون المعنى الأنثوي هو الجانب المسيطر على المرأة دون غيره ، فامراة العزيز تحركها الغريزة نحو الرجل ، وأم موسى تتملكها عاطفة الأمومة ... إلخ .

إن الصورة تكاد تخلو من الألوان البيانية إلا من الكناية ، ولكن " البديع " سبحانه وتعالى أبدعها ربانية ، تصف الأشياء على حقيقتها ، فتبدو أكثر وضوحا وأشد جلاء ، وتلك هي طريقة القرآن الخاصة وفنه في رسم الصورة ، بما تقتضيه الطبيعة البشرية ، والموقف الذي تمر به ، ليغور في النفسية ، ويحلل الشخصية ، فتاتي أكثر جلاء .

ثالثا : الصورة الحيوانية

في القرآن الكريم نماذج عديدة لصور حيوانية مختلفة ، وكائنات من الطبيعة المتحركة ، عرضتها آيات الذكر الحكيم ليس من أجل الحديث عن الحيوان ذاته ، ولكن بالطريقة التي تخدم الفكرة وتجلو المعنى.

أ – صورة الخيل :

ومن أبرز الصور الحيوانية التي وردت في القرآن الكريم صورة الخيل ، وقد ذكرت في عدة مواضع ، منها الإشارة إلى أنها وسيلة انتقال ، وتستعمل للمتعة والتسلية ، قال

(٢٠) سورة مريم ، الآية رقم ٢٣

تعالى : " وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَة " [٢١]، والإشارة الثانية في سياق الحديث عن متع الدنيا وشهواتها ، في قوله تعالى " وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَة " [٢٢] ، قال ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : الْمُسَوَّمَةُ الرَّاعِيَةُ، والمُطَهَّمة الحسَان ... وَقَالَ مَكْحُولٌ: الْمُسَوَّمَةُ: الغُرَّة وَالتَّحْجِيلُ [٢٣] ، وقيل المسوَّمة : المعلَّمة أي لها علامات ، وقيل المرسلة وعليها فرسانها [٢٤] ، ولا يخفى ما في هذه الإشارة من وصف لحسنها وافتتان الناس بجمالها ، وحبهم لاقتنائها .

والإشارة الثالثة مكملة للثانية ومفصلة لها ، فنرى فيها صورة الخيل في مملكة سليمان عليه السلام ، يقول تعالى : " وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ، إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ، فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ، رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ" [٢٥] ، إنها الصافنات التي تقف على ثلاث وطرف رابع حافر ، والجياد أي السراع ، وقيل كانت ذات أجنحة ، وقد بلغت من جمالها وإشغالها لسليمان أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر نسيانا لا عمدا ، فلما تبين له ذلك أَمَر بها فعُقِرت ، وضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف [٢٦] ،

والإشارة الرابعة نرى فيها صورة الخيل المقاتلة في قوله تعالى : " وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا " [٢٧] ، ولعل الكلمات ترسم صورة بالغة الأهمية لهذه الخيل ، ومن دلالات ذلك أنها تأتي مقسما بها ، والله تعالى لا يقسم بشيء من خلقه إلا تعظيما له ورفعة لشأنه ، ثم ما أوصاف تلك الخيل ؟ إنها سريعة (عاديات) ، تحدث صوتا حين تعدو (ضبحا) ، وتصطك نعالها بالصخر فتقدح منه النار (موريات قدحا) ، وتهجم على الأعداء في وقت الصباح (مغيرات صبحا

([٢١]) سورة النحل : الآية رقم ٨

([٢٢]) سورة آل عمران : الآية رقم ١٥

([٢٣]) ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي) (المتوفى: ٧٧٤هـ): تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) ، تحقيق: سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط ٢ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م ، ٢ / ٢١

(٢٤) ابن منظور (أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم بن على بن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى) (المتوفى: ٧١١هـ) لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤١٤ هـ ، مادة (سوم)

([٢٥]) سورة ص ، الآيتان ٣٠ : ٣٣

(٢٦) ابن كثير : المرجع السابق ٧ / ٦٥

([٢٧]) سورة العاديات ، الآيات ١ : ٥

) ، وتثير الغبار في مكان المعترك (فأثرن به نقعا) ، ثم قال : (فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) أَيْ: تَوَسَّطْنَ ذَلِكَ الْمَكَانَ كُلُّهن جُمَع [٢٨]

ونرى في هذا المشهد الأخير عناية بكل عناصر الصورة ، ففيها عنصر الزمان وهو الصبح ، وعنصر المكان ذلك الجبلي الصخري الذي تستعر فيه نيران المعركة ، وهو أيضا رملي يثار فيه الغبار ، وعنصر الحركة في العَدْوِ والإغارة ، وعنصر الصوت في الضبح ، وعنصر اللون في الخيل نفسها ، وفي النار المتطايرة ، وفي الغبار الذي يملا الأفق .

إن هذه العناية القرآنية بصورة الخيل تلمس شغاف قلب العربي الذي يتلقى القرآن ، وقد كانت الخيل قد شغلت حيزا كبيرا من شعره وفكره ، وحربه وصيده ، ولهوه وجده ، ولا يغيب عنا أن للأقدمين مؤلفات كثيرة حول الخيل وأوصافها وأنسابها ، وذكر أجزائها وأعضائها ، منها ما ذكره الدكتور كامل الدقس في الصفات الجسمية للحصان العربي يقول : « وهذه الخيل العراب هي أصل لكل الجياد الأصيلة في العالم، وأجودها الخيل النجدية، وتمتاز برأسها الصغير، وعنقها المقوس، وظهرها المستقيم، وذيلها المرفوع المموج، وحوافرها الصلبة الصغيرة، وشعرها الناعم، ومفاصلها المتينة، وصدرها المتسع، وقوائمها الرقيقة الجميلة ، وهي قوية جدا وسريعة، وتلوح على وجوهها علامات الجد. .» [٢٩]، وليس ببعيد عن ذاكرتنا وصف امرئ القيس للفرس وهو يتغنى به في الرحلة ويستفيض في وصف تفاصيله وجزئياته ، في قوله [٣٠] :

يُزِلّ الغُلامَ الْخِفَّ عن صَهَواتِــهِ ويُلْــوِي بأثْــواب العَنيـفُ الْمُثَقَّـلِ

([٢٨]) ابن كثير : المرجع السابق ٨ / ٤٦٥

(٢٩) انظر د. كامل سلامة الدقس : وصف الخيل في الشعر الجاهلي ، الكويت ١٣٩٥/ ١٩٧٥، ص ٣١ ، وانظر أيضا على سبيل المثال : الحسن بن أحمد بن محمد الأعرابي، أبو محمد الأسود الغندجاني (المتوفى: نحو ٤٣٠هـ) : أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها، تحقيق: د.محمّد علي سلطاني ، دار العصماء، دمشق ، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٧ م

([٣٠]) امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي ، (المتوفى: ٥٤٥ م) : ديوان امرئ القيس ، تحقيق : عبد الرحمن المصطاوي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م ، ١ / ٥٣ : ٦٠ ، وانظر أيضا : حسين بن أحمد بن حسين الزَّوْزَني (المتوفى: ٤٨٦هـ) : شرح المعلقات السبع ، دار إحياء التراث العربي ، ط ١ ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م ، ص ٦٣ : ٦٩

دَريـرٍ كَخُـذْروفِ الوليـدِ أمَـرَّهُ تتابُـعُ كَفَّيــهِ بِخَيْــطٍ مُوَصَّـــلِ
لَـهُ أَيْطَـلا ظَبْـيٍ وساقـا نَعـامَةٍ وَإِرْخـاءُ سِرْحَـانٍ وَتَقْرِيبُ تَتْفُـلِ

فالحصان عند امرئ القيس هو صورة شخصية بحتة لامرئ القيس الصائد الذي يتلطخ صدر حصانه بدماء صيده ، نعم إن امرأ القيس يبني صورة شخصية لذاته عن طريق بنائه لصورة حصانه ... ويقينا إنها صورة خاصة به تعكس عالمه الذاتي " [٣١]

أما حصان عنترة فهو ليس صيادا كما رأينا عند امرئ القيس ، بل هو فرس مقاتل تتجلى صورته في مشاهد الحرب والنزال ، وقد أشرعت الرماح إلى صدره ، فاكتسى بالدماء ، ويخلع الشاعر على فرسه شعورا بشريا ، يجعله يشكو ويريد أن يتكلم ، يقول عنترة[٣٢] :

يَدْعُـونَ عَنْتَـــرَ والرِّمَـاحُ كَأَنَّهَـا أَشْطَانُ بِئْـرٍ فِي لَبَـانِ الأَدْهَمِ
مَا زِلْـتُ أَرْمِيهِـمْ بِثُغْـرَةِ نَحْـرِهِ وَلَبَـانِهِ حَتّـى تَسَـرْبَلَ بِالــدَّمِ
فَازْوَرَّ مِـنْ وَقْـعِ القَنَـا بِلَبَـانِـهِ وَشَـكَا إِلَـيَّ بِعَبْـرَةٍ وَتَحَمْحُـمِ
لَوْ كَانَ يَدرِي مَا الْمُحَـاوَرَةُ اشْتَكَى وَلَكَـانَ لَوْ عَلِمَ الكَـلَامَ مُكَلِّمِي

وهكذا نرى أن الفرس في الشعر العربي هو " المبدع لكل حاجة إبداعية ، بما تميز به من خوارق وصفات جعلته الكائن الأسطوري الخالق "[٣٣]

ولكن يختلف التناول القرآني للصورة عن تناول الشعراء ، حيث إننا لا نجد في القرآن عناية بتفاصيل لا تخدم السياق ولا المعنى ، بل نجد وصفا مجملا قد عجز السابقون عن أن يلموا فيه بكل عناصر الصورة التي ذكرناها ، كما نجد أيضا تفاصيل تتعلق بالوظيفة والصفات لم نجدها عند الشعراء ، وهذا وجه من وجوه الإعجاز القرآني ، حتى إذا ما قرأ العربي تلك الآيات ، وشاهد تلك الصور ، وجد ما لم يجده عند الشعراء ، فامتلأت نفسه بالإعجاب لهذا الكلام الذي ما كان لبشر أن يأتي به .

([٣١]) د. سعيد حسون العنبكي : جماليات تلقي الصورة الشعرية في القصيدة الجاهلية ، مجلة الأستاذ ، تصدر عن كلية التربية جامعة بغداد ، ع ٢٠٦ ، م ١ ، ١٤٣٤ه / ٢٠١٣م

([٣٢]) انظر محمد سعيد مولوي : ديوان عنترة – تحقيق ودراسة ، المكتب الإسلامي ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م ، ص ٢١٧ ، وانظر أيضا الزَّوْزَني ، المرجع السابق ، ص ٢٦٢ .

([٣٣]) عماد علي سليم أحمد الخطيب : الصورة الفنية في المنهج الأسطوري – دراسة تحليلية ، رسالة ماجستير بكلية الآداب بجامعة اليرموك ، المملكة الأردنية ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، المقدمة ، ص (ط)

ب – صورة البقرة :

وردت البقرة في قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل ، ويعنينا أنها من الحيوانات التي نالت درجة كبيرة من التقديس عند كثير من الأمم ، فالمصريون القدماء عبدوا العجل أبيس ، ورسموه على جدران معابدهم وقربوا له القرابين ، وكذلك الهنود يعبدون البقرة المقدسة ويحرمون ذبحها ، وللثور دلالات أسطورية وعقدية في الشعر الجاهلي ، وللعجل مكانة كبيرة في حياة اليهود لدرجة أنهم اتخذوه إلها عندما ذهب موسى للقاء ربه عز وجل .

ونظرا لهذه القدسية التي أضفتها الأمم السابقة بجهلها على البقرة ، وخصوصا قوم موسى ، جاء الأمر من الله لهم أن يذبحوا بقرة ، وقد أشار إلى ذلك أبو حيان ، ولا أعلم أحدا من المفسرين غيره لاحظ تلك الدلالة ، يقول : " وَإِنَّمَا اخْتُصَّ الْبَقَرُ مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُعَظِّمُونَ الْبَقَرَ وَيَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَاخْتُبِرُوا بِذَلِكَ، إِذْ هَذَا مِنَ الِابْتِلَاءِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ أَنْ يُؤْمَرَ الْإِنْسَانُ بِقَتْلِ مَنْ يُحِبُّهُ وَيُعَظِّمُهُ " [٣٤]، وهذا التقديس وذلك التعظيم من أكبر الأسباب التي دفعتهم إلى التلكؤ في تنفيذ الأمر ، إضافة إلى ما عرف عنهم من الجدل والمراوغة .

ثم لننظر إلى الصورة التي رسمها القرآن الكريم لهذه البقرة ، إنها صورة مثالية للبقرة ، وهي حيوان كامل الأوصاف ، ليختبر مدى إيمانهم بالله ، وتتجلى هذه المثالية في عناصر الصورة ، وهي

- أنها متوسطة العمر ، لا مسنة ولا فتية " بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِك " [٣٥]
- لونها أصفر ، وقد راح المفسرون يتكلمون في اللون ، ولماذا اختاره أصفر ، ولعل أصفر بمعنى أسود[٣٦]، ولكن يهمنا أن نشير إلى أن اللون الأصفر كانت له دلالات

([٣٤]) أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ) : البحر المحيط في التفسير ، تحقيق صدقي محمد جميل ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٢٠ هـ ، ١ / ٤٠٤

([٣٥]) سورة البقرة ، الآية رقم ٦٨

([٣٦]) القرطبي ١ / ٤٥٠ ، والطبري ٢ / ١٩٩

عقدية عند اليهود ، ولعل هذا هو السر في تحديد درجة اللون الأصفر ووصفها بأنها " بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا " [٣٧]

الناحية الجمالية والتأثير النفسي في قوله تعالى : " تَسُرُّ النَّاظِرِين "[٣٨]، إذا نظرت إليها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها.[٣٩]

- الناحية الخُلقية : وتتجلى في كونها " لا ذلول " أي ليست هينة سهلة الانقياد ، وهي أيضا " تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْث " [٤٠]

ويبدو لي بعد الوقوف على كل هذه التفاصيل ، والصورة المثالية السامية التي اتصفت بها البقرة في القرآن لم تكن مصادفة ، وإنما ذلك راجع إلى ما كان للبقرة عند بني إسرائيل من دلالات عقدية ، لم يستطيعوا أن يتخلصوا منها ، فجاءت الصورة الفنية للبقرة تنطوي على هذه الإشارات من غير أن تصرح بها .

وفي القرآن نماذج أخر للصور حيوانية منها صورة الهدهد في إثبات عظمة ملك سليمان الذي كان يكلم الطير ، وصورة الناقة في سياق الحديث عن معجزة صالح عليه السلام ، وهناك حيوانات أخرى ورد ذكرها في القرآن الكريم مثل الناقة والنسر والأسد ، وكلها لها دلالات ميثولوجية ، وعلاقات عقدية .

وقد يستخدم القرآن الكريم من الصورة الحيوانية جزئية معينة كصوت الحمير عند التنفير من الصوت المنكر القبيح ، وتشبيه اليهود بهم لأنهم لم يعوا كتاب الله المنزل عليهم ولم يعملوا به .

وقد تأتي الصورة الحيوانية مجملة غير مفصلة تشير إلى أنواع الحيوان ، كقوله تعالى : " وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا " [٤١] ، أي ما تحملون عليه أشياءكم وما تأكلونه وتحلبون منه ، أو تشير إلى الوظائف العامة له ، كقوله تعالى : " وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا

---

(٣٧) سورة البقرة ، من الآية رقم ٦٩
(٣٨) سورة البقرة ، من الآية ٦٩

(٣٩) الطبري ، ٢ / ٢٠٢
(٤٠) سورة البقرة من الآية ٧١
(٤١) سورة الأنعام ، الآية رقم ١٤٢

دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ " [٤٢].

رابعا: الصور الكونية

لفتت الطبيعة حس الإنسان العربي ، فراح يتأملها ويستلهمها ، يشاهد جمالها ، ويسمع أنغامها ، وينشق من عبيرها ، ويستمتع بفتنتها ، وراح الشعراء يتغنون بالسماء والنجوم ، وبالشمس والقمر ، والليل والنهار ، والرياح والأمطار ، ، وكذلك كان الشاعر كلفا بالألوان ، " وأكثر الألوان ورودا هو اللون الأبيض ثم الأسود فالأخضر فالأحمر ، ويحب الشاعر الجاهلي مزج الألوان المتناقضة كالأبيض والأسود ، والألوان المنسجمة كالأبيض والأصفر ، أو الأبيض والأحمر " ٤٣

وقد جاءت الصور الكونية في القرآن الكريم منتزعة من الطبيعة التي عاشها العربي الذي يتلقى القرآن ، ونراها متمثلة في عناصر الكون من جبال ، وأمطار ، وسماء ، وشمس ، وقمر ، ونجوم .

أ – صورة الجبل :

يخلب الجبل الإنسانبألوانه ، ويستولي على وجدانه ، لذلك يقول تعالى : " وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُود "[٤٤]، وهذا التجاور اللوني من أشد ما يجذب الإنسان ، ويلفت نظره وإعجابه ، ففي الصورة ثلاثة ألوان ؛ اللون الأبيض في الطرائق والشعاب ، واللون الأحمر وهو ليس لونا واحدا بل هو درجات متعددة ، واللون الأسود الحالك الشديد السواد لدرجة أنه يشبه لون الأغربة ، " واللفتة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد ، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار ، تهز القلب هزا ، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي ، التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية ، فتراه في الصخرة كما تراه في الثمرة ، على بعد ما بين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة ، وعلى بعد ما

(٤٢) سورة النحل ، الآيات ٥ : ٧
(٤٣) د / نصرت عبد الرحمن : الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ، ص ١٨٧
(٤٤) سورة فاطر الآية رقم ٢٧

بين وظيفتيهما في تقدير الإنسان ، ولكن النظرة الجمالية المجردة ترى الجمال وحده عنصرا مشتركا بين هذه وتلك ، يستحق النظر والالتفات "[٤٥]

إن الإبداع اللوني ما هو إلا عنصر واحد من عناصر صورة الجبل ، ونلاحظ أن للجبل مشهدين ؛ مشهدا دنيويا وآخر أخرويا ، ففي مشاهد الدنيا نرى الجبل عبدا من عباد الله ، وآية من آياته ، ، وتتجلى عبوديته لله في تسبيحه وسجوده وخشوعه ، يقول تعالى : " وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْر " [٤٦]

" قَالَ وَهْبٌ: كَانَ دَاوُدُ يَمُرُّ بِالْجِبَالِ مُسَبِّحًا وَالْجِبَالُ تُجَاوِبُهُ بِالتَّسْبِيحِ، وَكَذَلِكَ الطَّيْرُ. وَقِيلَ: كَانَ دَاوُدُ إذا وجد فترة أمر الجبال فسبحت حَتَّى يَشْتَاقَ، وَلِهَذَا قَالَ:" وَسَخَّرْنا" أَيْ جَعَلْنَاهَا بِحَيْثُ تُطِيعُهُ إِذَا أَمَرَهَا بِالتَّسْبِيحِ. وَقِيلَ: إِنَّ سَيْرَهَا مَعَهُ تَسْبِيحُهَا، وَالتَّسْبِيحُ مَأْخُوذٌ مِنَ السَّبَاحَةِ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:" يَا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ " ، وَقَالَ قَتَادَةُ:" يُسَبِّحْنَ" يُصَلِّينَ مَعَهُ إِذَا صَلَّى، وَالتَّسْبِيحُ الصَّلَاةُ. وَكُلٌّ مُحْتَمَلٌ. وَذَلِكَ فِعْلُ اللَّهِ تَعَالَى بِهَا ، ذَلِكَ لِأَنَّ الْجِبَالَ لَا تَعْقِلُ فَتَسْبِيحُهَا دَلَالَةٌ عَلَى تَنْزِيهِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ صفات العاجزين والمحدثين." [٤٧]

ويقول تعالى : " وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَدا " [٤٨]، ويقول : " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَال " [٤٩] ، ويقول : " يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ " [٥٠] ، ويقول : " إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراق " [٥١]

ويظهر سر جمال هذه الصور في التشخيص الذي يحرِّك الجماد ، ويلبسه ثوبا بشريا ، ويجعله يسجد ويسبّح ، بل ويؤوِّب أي يُرَجّع التسبيح ، ولا يخفى ما توحي به هذه الصور من خضوع لله وإجلال .

([٤٥]) سعيد حوّى : المرجع السابق ٤٥٨٩/٨

([٤٦]) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٧٩

([٤٧]) القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين) (المتوفى: ٦٧١هـ) : الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م ، ٣١٩/١١

([٤٨]) سورة مريم ، الآيتان ٩٠ ، ٩١

([٤٩]) سورة الحج ، الآية رقم ١٨

([٥٠]) سورة سبأ ، الآية رقم ١٠

([٥١]) سورة ص ، الآية رقم ١٨

والجبل آية من آيات الله ويكشف القرآن الكريم عن أهميته في هذه الدنيا ، فمن الخلق من يتخذونه مساكن لهم من البشر ومن غير البشر ، وليس هناك حصن أكثر مناعة ولا قوة ولا أمنا من الجبل ، يقول تعالى : " وَكانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِين " [٥٢]، قال القرطبي : " وَكَانُوا لِقُوَّتِهِمْ يُخْرِجُونَ الصُّخُورَ، وَيَنْقُبُونَ الْجِبَالَ، وَيَجْعَلُونَهَا بُيُوتًا لِأَنْفُسِهِمْ " [٥٣]، ويقول تعالى : " وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا " [٥٤]، فتوجيه الله تعالى خلقه للجبل ليسكنوه فيه رسم لصورة الجبل وقد صار ملاذا آمنا لبعض الخلق ولم يعد مهجورا ، بل هو سكن آمن ، وحصن حصين .

وتكتمل الصورة بذلك التشبيه الرائع الذي هو سر من أسرار الخلق ، ما كان للعقل البشري أن يسبق إليه أو أن يدركه ، وذلك قوله تعالى " وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا " [٥٥] ، أَيْ لِتَسْكُنَ وَلَا تَتَكَفَّأَ وَلَا تَمِيلَ بِأَهْلِهَا [٥٦]، فالجبال هنا لها وظيفة ، أنها تجعل الأرض ساكنة مستقرة ، لا تتحرك ولا تهتز ، ولا يتسنى لنا فهم هذه الوظيفة بوضوح إلا من وصفها بأنها كالأوتاد التي تشد عليها الخيام لتحفظها من السقوط ، ومع جمال التشبيه وكونه يكشف عن بدائع الخلق ، يأتي المشبه به منتزعا من الطبيعة ، فلا يملك اللبيب إلا أن يسلّم ويستسلم.

وتأتي صورة الجبل في مشاهد الآخرة مكملة للصورة العامة له ، ونحن نرى التغيرات الكونية التي تطرأ على المخلوقات ، وتصاحب الانقلاب العام يوم القيامة ، وأبرز ما يميز الجبل فيها عنصر الحركة ، كما في قوله تعالى " وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ ،وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ "[٥٧]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ قَائِمَةً وَهِيَ تَسِيرُ سَيْرًا حَثِيثًا " [٥٨] ، وَكَذَلِكَ كُلُّ شَيٍّ عَظِيمٍ وَجَمْعٌ كَثِيرٌ يَقْصُرُ عَنْهُ النَّظَرُ، لِكَثْرَتِهِ وَبُعْدِ مَا بَيْنَ أَطْرَافِهِ، وَهُوَ فِي حُسْبَانِ النَّاظِرِ كَالْوَاقِفِ وَهُوَ يَسِيرُ.

---

(٥٢) سورة الحجر ، الآية رقم ٨٢
(٥٣) القرطبي : المرجع السابق ٢٠ / ٤٨
(٥٤) سورة النحل ، من الآية رقم ٦٨
(٥٥) سورة النبأ ، الآية رقم ٧
(٥٦) القرطبي : المرجع السابق ١٩ / ١٧١
(٥٧) سورة النمل : الآيتان ٨٧ ، ٨٨
(٥٨) القرطبي : المرجع السابق ، ١٣ / ٢٤٢

وفي قوله " وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ " [٥٩]، أَيِ الصُّوفِ الَّذِي يُنْفَشُ بِالْيَدِ، أَيْ تَصِيرُ هَبَاءً وَتَزُولُ، كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ" وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ، فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا "[٦٠]، وَأَهْلُ اللُّغَةِ يَقُولُونَ: الْعِهْنُ الصُّوفُ الْمَصْبُوغُ [٦١]

إن الاضطراب والهول والرجفة ، وكل ما يمكن أن يقال عن الحدث ، يؤثر في أكثر الخلق صلابة ومنعة ، وهي الجبال ، فيجعلها تتحرك كالسحاب الذي يمر في خفة وسرعة ، ويجعلها كالسراب أي الوهم الذي لا حقيقة له ، ويجعلها كالصوف المصبوغ بألوان مختلفة ، حتى إنك لتستطيع أن تفرقه بالأصابع ،

ومن خلال التشبيهات السابقة يتراءى لنا الجبل على هيئة غير التي نعهدها ، فينتقل الشعور بالرهبة من الجبل الصلب الأصم ، إلى الإشفاق على هذا العبد الضعيف الخائر .

وتكتمل الصورة بمشهد الجبال يوم القيامة ، في قوله جل شأنه : " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ، فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ، لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا " [٦٢]، " قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ وَغَيْرُهُ: يَقْلَعُهَا قَلْعًا مِنْ أُصُولِهَا ثُمَّ يُصَيِّرُهَا رَمْلًا يَسِيلُ سَيْلًا، ثُمَّ يُصَيِّرُهَا كَالصُّوفِ الْمَنْفُوشِ تُطَيِّرُهَا الرِّيَاحُ هَكَذَا وَهَكَذَا ... ثُمَّ كَالْهَبَاءِ الْمَنْثُورِ. (فَيَذَرُها) أَيْ يَذَرُ مَوَاضِعَهَا (قَاعًا صَفْصَفاً) القاع الأرض الملساء بِلَا نَبَاتٍ وَلَا بِنَاءٍ ، قَالَهُ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ. وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَالْقَاعُ الْمُسْتَوِي مِنَ الْأَرْضِ ... وَقَالَ الْفَرَّاءُ: الْقَاعُ مُسْتَنْقَعُ الْمَاءِ وَالصَّفْصَفُ الْقَرْعَاء ، قال الْكَلْبِيُّ: هُوَ الَّذِي لَا نَبَاتَ فِيهِ ، و (لَا تَرى فِيها عِوَجاً) الْعِوَجُ التَّعَوُّجُ فِي الْفِجَاجِ. وَالْأَمْتُ أَرْضٌ مُسْتَوِيَةٌ لَا انْخِفَاضَ فِيهَا وَلَا ارْتِفَاعَ ، والْأَمْتُ فِي اللُّغَةِ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:" عِوَجًا" مَيْلًا[٦٣]

ومهما يكن من اختلاف في المعنى فجميع ما قيل يتضافر في رسم صورة الجبل يوم القيامة ، ويتحول هذا الطود الشامخ المرتفع إلى أرض مستوية غير ملتوية ، ليس فيها

([٥٩]) سورة القارعة ، الآية رقم ٥
([٦٠]) سورة الواقعة ، الآيتان ٥ ، ٦
([٦١]) القرطبي : المرجع السابق ٢٠ / ١٦٥
([٦٢]) سورة طه ، الآية رقم ١٠٧
([٦٣]) انظر : القرطبي : المرجع السابق ، ٢٤٦/١١

ارتفاع ولا انخفاض ، وهذه صورة رائعة تبين مدى القدرة الإلهية ، التي لا يبقى معها شيء مرتفع أو عظيم .

وهكذا نرى الطبيعة الجامدة تتحرك في الصورة القرآنية ، ولا نسمع لها حسا ، فيستنطقها القرآن ، ويلفت لها نظر الإنسان باعتبارها آيات دالة على الخالق جل وعلا ، وباعتبارها عبادا لله تعالى ، فترى النجم والشجر يسجدان له ، وترى يده القادرة تزجي السحاب ، وترى الرعد يسبح بحمده ، فينكشف لنا أن مظاهر الطبيعة في القرآن قد صارت محورا يرتكز عليه التعبير عن المعاني ، وتحريك الوجدان .

ب – صورة المطر :

ورد المطر في القرآن الكريم بألفاظ متعددة منها (الماء ، الغيث ، الودق) ، واللافت للنظر أن لفظ (المطر) لم يرد في أية آية من القرآن إلا كان مرتبطا بالنقمة والعذاب وكلها نزلت في الحديث عن قوم لوط وما أنزل الله عليهم من العقاب وهو ليس مطرا فيه ماء ، إنما هي حجارة أُمطروا بها من السماء فأهلكتهم ، من ذلك قوله تعالى" وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِين " [٦٤] ومنه وقوله " وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا " [٦٥] ، يتحدث عن مشركي مكة ، والقرية هي قوم لوط ، ومطر السوء أي الحجارة التي أمطروا بها [٦٦].

ووردت الصورة الثانية للمطر في سياق النعمة والمنة والفضل من الله تعالى على عباده ، فيكون مصدرا للخير والحياة ، وقد ورد بلفظ (الغيث) في قوله تعالى " إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ... "[٦٧] وفي قوله تعالى" وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ " [٦٨] .

ونلاحظ أن لفظ الغيث أتى في سياق الحديث عن شدة الحاجة إلى الماء ، فكان إغاثة للملهوفين ، وفرجا للمكروبين ، يقول الطبري : " يقول تعالى ذكره: والله الذي ينزل

([٦٤]) سورة الأعراف ، الآية رقم ٨٤
([٦٥]) سورة الفرقان ، الآية رقم ٤٠
([٦٦]) القرطبي : المصدر السابق ص ٣٤
([٦٧]) سورة لقمان ، الآية رقم ٣٤
([٦٨]) سورة الشورى ، الآية رقم ٢٨

المطر من السماء فيغيثكم به أيها الناس (مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا) يقول: من بعد ما يئس من نزوله ومجيئه "[٦٩]

وجاء بلفظ (الماء) في مواضع كثيرة منها قوله تعالى " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ " [٧٠] ، وفي قوله : " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا " [٧١]، وفي قوله : " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُه " [٧٢]

وفي كل مرة يذكر فيها الماء نجد له صورة غير الأخرى ، وتختلف الآثار المترتبة على نزول الماء من آية إلى أخرى ، فتارة تصبح الأرض مخضرة ، وتارة يخرج الله به الثمرات ، وهذه غير تلك ، وتارة ثالثة تسلط الأضواء على طريقة تسرب الماء في باطن الأرض فيصير عيونا وتستمد منه الزروع أسباب الحياة .

وجاء المطر في القرآن الكريم بلفظ (الودق) من ذلك قوله تعالى " اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ " [٧٣]، والودق: المطر كله شديده وهينه ، وقد ودق يدق ودقًا أي قطر[٧٤]، واختلاف اللفظ ليس عبثا ، بل هو يعطي للصورة بعدا جديدا ، ويزيدها وضوحا ، ويجعل أسماع العرب تزداد تعلقا بها ؛ لأن اختلاف المفردات يؤدي إلى غناء الصورة وثرائها ، ولقد رسمت الآية صورة لم تتكرر عند لفظ الماء ، وهي حالة هذا الماء قبل أن ينزل ، وكيف تجمع في السماء ، وفي معنى الآية يقول الطبري : " قيل في ذلك قولان: أحدهما: أن معناه أن الله ينزل من السماء من جبال في السماء من برد مخلوقة هنالك خلقه، كأن الجبال على هذا القول هي من برد ... والقول الآخر: أن الله ينزل من السماء قدر جبال، وأمثال جبال من برد إلى الأرض " [٧٥]

---

(٦٩) الطبري ٢١ / ٥٣٧
(٧٠) سورة الحج ، الآية رقم ٦٣
(٧١) سورة فاطر ، الآية رقم ٢٢
(٧٢) سورة الزمر ، الآية رقم ٢١
(٧٣) سورة الروم ، الآية رقم ٤٨
(٧٤) ابن منظور : لسان العرب (ودق)
(٧٥) الطبري : ١٩ / ٢٠٢

وللمطر دلالته الخاصة في عقيدة الأقدمين وفكرهم ، فقد وردت صورته في الشعر الجاهلي كثيرا ، وحملت الصورة عدة دلالات ، ويرى بعض الدارسين أن العرب تصوروا السماء وكأنها ناقة عشراء تحلب لبنا ، أو أنثى يتحلب المطر من ثدييها ، أو بقرة كبيرة الضرع ، وكانوا يعبدون البقرة أو الناقة ، ويرمزون لكل منهما برموز خاصة . [٧٦]

والدلالة الثانية للمطر أنهم كانوا يربطون بينه وبين النجوم ، وكانت مسألة الاستسقاء بالنجوم معروفة لديهم ، وقد عمل الإسلام على تطهير هذا المعتقد ، كما في قول الرسول صلى الله عليه وسلم " هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ " [٧٧]

الدلالة الثالثة للمطر تتعلق بكون العرب كانوا يعتقدون أن للملوك القدرة على إنزال المطر ، وهذا الاعتقاد من الأمور التي درجت البشرية على الإيمان بها ، وورد شعر عربي تتضح فيه هذه المعاني ، وأن الملك يستسقى الغمام به .[٧٨]، ومن ذلك قول الأعشى :

أودى ابن هند وأودى المجد يتبعه ... كذاك كنّا جميعا قاطنيـــن معا

أغــرُّ أبلـجُ يُستسقى الغمـــامُ بـه ... لو قارع الناس عن أحلامهم قرعا [٧٩]

يظهر المطر عند العرب " في الصورة الأسطورية ، وما في طريقة الاستسقاء من بقايا معتقدات قديمة ، وقد صور الشاعر المشاعر الإنسانية لحظة سقوط المطر "[٨٠]

وبقيت هذه الأفكار في الشعر العربي إلى ما بعد ظهور الإسلام ، وإن كانت قد فقدت دلالتها العقدية ، وتحولت إلى إشارات لمعاني الكرم والسخاء ، كقول جرير يمدح عمر بن عبد العزيز :

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر [٨١]

أما القرآن الكريم – كما رأينا في الآيات السابقة – فقد جاء ليقول لهم : يا من تقولون إن الملوك تنزل المطر ، وإن النجوم تنزل المطر ، إن للملوك ملكا هو الذي يأمر

---

(٧٦) انظر : د. نصرت عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

(٧٧) البخاري (أبو عبدالله محمد بن إسماعيل) : الجامع المسند الصحيح (صحيح البخاري) ،تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة ، ط ١، ١٤٢٢هـ ، ١٦٩/١

(٧٨) انظر : د. نصرت عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ٢٩

(٧٩) ابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ) ، العقد الفريد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٤ه ، ٥ / ١٢٣

(٨٠) عماد علي سليم أحمد الخطيب : المرجع السابق ، المقدمة ، ص (ي)

(٨١) ابن عبد ربه : المرجع السابق ، باب وفود الشعراء على عمر بن عبد العزيز ، ١ / ٣٣٩

المطر فينزل ، وإن للنجوم ربا هو الذي يحرك الكون كله ، ولذلك نرى في الآيات الألفاظ " ينزّل الغيث " ، " الله أنزل " ، " أنزل من السماء ماء " ، وبهذا يرسي القرآن دعائم العقيدة السليمة من خلال صورة المطر بما يتفق مع المنظور الإسلامي ، لتزول معها الصورة القديمة التي تتعلق بالعقائد الباطلة .

ج – صورة السماء :

شغلت السماءُ البشريةَ منذ بدء الخلق ، وشرع الناس يبحثون فيها عن القوة المحركة للكون ، وفي القرآن الكريم إشارة إلى ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام حين أخذ يتأمل النجوم ثم القمر ثم الشمس ، ثم اهتدى إلى الحقيقة بعد أن يئس من كل هذه الظواهر ، ووجد أنها غير دائمة الوجود .

وكان للشمس والقمر والنجوم قداسة عند العرب في الجاهلية ، ونرى أصداء هذه العقائد في أشعارهم ، فهم يذكرون الخشوع للقمر ، ويشبهون الصور البشرية التي يرون فيها المثالية والكمال بالشمس .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المعتقدات القديمة ، كما في قوله تعالى : " وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ " [٨٢]، وقوله تعالى : " وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ " [٨٣].

وكانت الشمس في الصورة الأسطورية معبودة ، عبدها المصريون القدماء ، ورمزوا للإله بقرص الشمس ، ورسموا صورا للملوك وهم يتبتلون في محرابها ، كصورة الملك إخناتون الذي وحّد العبادة وجمع المعبودات كلها في إله واحد هو الشمس ، واسمه يدل على ذلك ، فهو (إخن – آتون) أي عبد الشمس ، وكان اسمه القديم (أمون حتب الرابع) أي عبد أمون أو عبد القمر ، " وبدأ أمنحوتب بنفسه، فتبرأ من لفظ آمون في اسمه، وسمى نفسه أخناتون، ربما بمعنى المخلص لآتون أو النافع لآتون أو المجد لآتون [٨٤] ، " ولقد كتبت ترنيمة إخناتون للشمس، وهي الترنيمة الذائعة الصيت، باللغة الدارجة " . [٨٥]

([٨٢]) سورة النمل، الآية رقم ٢٤

([٨٣]) سورة فصلت ، الآية رقم ٣٧

([٨٤]) عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم في مصر والعراق ، مكتبة دار الزمان ، د ت . ص ٣٣١

([٨٥]) ول ديورَانت : قصة الحضارة ، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمُود وآخرين ، دار الجيل، بيروت - لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ١١٨/٢

ورأى إخناتون أن الألوهية أكبر ما تكون في الشمس مصدر الضوء وكل ما على الأرض من حياة ، " وأياً كان أصل هذا الإله فقد ملأ نفس الملك بهجة وسروراً... واستعان ببعض الترانيم القديمة، وبعض قصائد في التوحيد– نشرت في أيام سلفه – فألف أغاني حماسية في مدح آتون " [٨٦]

وقد عبد العرب للشمس في مواضع مختلفة في جزيرة العرب. وترجع عبادتها إلى ما قبل الميلاد ، وعبدها أقوام آخرون من غير العرب من الساميين، مثل البابليين والكنعانيين والعبرانيين. وقد أشير في مواضع عديدة من العهد القديم إلى عبادة الشمس بين العبرانيين ... وقد اتخذت جملة مواضع لعبادة الشمس فيها عرفت بـ"بيت شمس" ، والشمس، أنثى في العربية، فهي إلهة، أما في كتابات تدمر فهي مذكرة، ولذلك فهي إله ذكر عند التدمريين ، وكانت عبادة الشمس شائعة بين التدمريين وورد في الكتابات التي عثر عليها في "حوران" أسماء أشخاص مركبة من شمس وكلمة أخرى، ويدل ذلك على شيوع عبادتها عند أهل تلك المنطقة ، ويذكر أن الشمس هي الإله الأكبر عند النبط ، والإله الأكبر فيها هو "اللات" فتكون اللات هي الشمس. ، وهي من الأصنام التي تسمى بها عدد من الأشخاص، فعرفوا بـ"عبد شمس [٨٧]

وقد دلت النقوش التي وجدت في الجزيرة العربية على أن الشمس كانت معبودة عند الجاهليين ، " وفي علم النقوش والكتابات العربية الجنوبية نتبين أن سائر الأسماء الإلهية المؤنثة تحوم حول هذه الآلهة وتدل عليها ، فالأسماء المركبة من (ذات) وأسماء أخرى مؤنثة كلها ألقاب للإلهة الشمس العربية العظيمة ، كما نجدها أيضا في شمال بلاد العرب فهي (شمس) أو (ألات) أي الإلهة "[٨٨]

وكما نعلم أن من أسماء العرب في الجاهلية (عبد شمس) وكان اسما لملك من ملوك قحطان ، يقول الشاعر :

([٨٦]) ول ديورانت : المرجع السابق ، ١٦٨/٢ ، وانظر في أخبار اخناتون وثورته على العقيدة القديمة : د. محمد أبو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق الأدني القديم ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م ، ص ٨١

([٨٧]) انظر : د.جواد علي (المتوفى: ١٤٠٨هـ) : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار الساقي ، ط ٤ ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م ، ١١ / ٥٥

([٨٨]) ديتلف نلسن وآخرون : التاريخ العربي القديم ، ترجمة د. فؤاد حسنين علي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨م ، ص ١٩٢

فيا عبد شمس بلغت المدى وشيدت مجداً فلم يمتثل[٨٩]

وقد أكد هذا جواد علي فقال : " والشمس من الأصنام التي تسمى بها عدد من الأشخاص، فعرفوا بـ"عبد شمس" وقد ذكر الأخباريون أن أول من تسمى به سبأ الأكبر؛ لأنه أول من عبد الشمس، فدعي بـ"عبد شمس" ، وقد ذكر أن بني تميم تعبدت له. وكان له بيت، وكانت تعبده بنو أد كلها ... "[٩٠]

أما القمر فقد كان محور الاعتقادات الفلكية الدينية الأولى عند العرب ، " وعبادة القمر لاحقة بحياة المراعي والبداوة ، وأما عبادة الشمس فمرحلة أرقى وهي عالقة بحياة الزراعة " [٩١]

وكعادة القرآن الكريم لا يعرض لهذه الرموز لإحيائها ، ولكن ليهذب العقلية المسلمة ويرشدها إلى الصواب ، لذلك نرى أن الشمس والقمر يجيئان في كتاب الله في سياق أنهما مسخران من قِبَله عز وجل ، وأنهما من آياته العظيمة ، بل هما من عباده ، يقول جل شأنه : " وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ "[٩٢] ، ويقول : " وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ "[٩٣]، ويقول : " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ "[٩٤] ، بل يجيئان ضمن ما يقسم به الله تعالى ليقول لمن عبدوهما إنكم تعظمونهما لذاتهما ، وأنا أعظمهما لذاتي ، وهما دليلان على إعجازي وقدراتي ، يقول : " كلا والقمر "[٩٥]، ويقول : " وَالشَّمْسِ وَضُحاها ، وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها "[٩٦].

واعتبر الجاهليون القمر أبًا في هذا الثالوث، وصار هو الإله المقدم فيه، وكبير الآلهة. وصارت له منزلة خاصة في ديانة العرب الجنوبيين. وهذا ما حدا ببعض المستشرقين إلى إطلاق ديانة القمر على ديانة العرب الجنوبيين ...[٩٧] ، واتخذ الثور من

(٨٩) وهب بن منبه : التيجَان في مُلوك حِمْيَرْ ، رواية عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري ، تحقيق ونشر: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء - الجمهورية العربية اليمنية ، ط ١، ١٣٤٧ هـ ، ص ٦٠

(٩٠) جواد علي : المرجع السابق ١١ / ٥٥ ، ٥٦

(٩١) فيليب حتي : تاريخ العرب ، ج ١ ، ترجمة إدوارد جرجي، جبرائيل جبور ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٦٥ م ، ١٣٥/١

(٩٢) سورة الأعراف ، الآية رقم ٥٤

(٩٣) سورة إبراهيم ، الآية رقم ٣٣

(٩٤) سورة الحج ، الآية رقم ١٨

(٩٥) سورة المدثر ، الآية رقم ٣٢

(٩٦) سورة الشمس ، الآيتان ١ ، ٢

(٩٧) جواد علي : المرجع السابق ١١ / ٥١

الحيوانات رمزًا للقمر، ولذلك عد الثور من الحيوانات المقدسة التي ترمز إلى الآلهة. ونجد هذه الصورة مرسومة في النصوص اللحيانية والثمودية وعند غير العرب من الشعوب السامية. وقد نص على اسمه في الكتابات؛ إذ قيل له "ثور"[٩٨] .

وقد ذكر "الآلوسي"، أن عبدة "القمر" "اتخذوا له صنمًا على شكل عجل، وبيد الصنم جوهرة يعبدونه ويسجدون له ويصومون له أيامًا معلومة في كل شهر، ثم يأتون إليه بالطعام والشراب والفرح والسرور. فإذا فرغوا من الأكل أخذوا في الرقص والغناء وأصوات المعازف بين يديه"[٩٩]، وكانت كنانة تعبد القمر [١٠٠]

ومن عقائد المصريين القدماء أن الأبراج والنجوم قد تكون آلهة، من ذلك أن ساحو وسيديت (أي كوكبتي الجبار والشعرى) كانا إلهين مهولين، وأن ساحو كان يأكل الآلهة ثلاث مرات في اليوم بانتظام. وكان يحدث في بعض الأحيان أن إلهاً من هذه الآلهة المهولة يأكل القمر، ولكن ذلك لن يدوم إلا قليلا، لأن دعاء الناس وغضب الآلهة الأخرى لا يلبثان أن يضطرّا الخنزير النهم إلى أن يتقايأه مرة أخرى . وعلى هذا النحو كان عامة المصريين يفسرون خسوف القمر.[١٠١] ،

وحين يتحدث القرآن الكريم عن مشاهد القيامة نجد للقمر صورة مختلفة عن صورته التي عهدناها فيما سبق ، يقول تعالى : " فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ ، وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ "[١٠٢]

وكان للنجوم نصيب من هذه العبادة والتقديس عند القدماء ، بل إن الجاهليين تخيلوا (القمر والشمس والنجم) ثالوثا مقدسا يتكون من (أب وأم وابن) ، وقد أكد هذا جواد علي بقوله: " وهذا الثالوث الكوكبي يدل، في رأي الباحثين في أديان العرب الجنوبيين، على أن عبادة العربية الجنوبية هي عبادة نجوم. وهو يمثل في نظرهم عائلة إلهية مكونة من ثلاثة أرباب، هي: الأب وهو القمر، والابن وهو الزُّهرة، والأم وهي الشمس " [١٠٣].

([٩٨]) انظر : جواد علي ، المرجع السابق ١١ / ٥٤

(٩٩) محمود شكري الألوسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، المطبعة الرحمانية بمصر ، ط ٢ ، ١٣٤٢ هـ ١٩٢٤م "٢/ ٢١٦

(١٠٠) انظر جواد علي : المرجع السابق ١١ / ٥٩ ، محمود شكري الألوسي : المرجع السابق ٢ / ٢٤٠

([١٠١]) ول ديورانت : قصة الحضارة ٢ / ١٥٦

([١٠٢]) سورة القيامة : الآيات ٧ : ٩

([١٠٣]) جواد علي : المرجع السابق ١١ / ٥٧

ويذكرون أن بعض طيء عبدوا "الثريا"، ويتبين من بعض الأعلام المركبة، مثل: عبد الثريا، وعبد نجم، أن الثريا ونجمًا، كانا صنمين معبودين في الجاهلية[١٠٤]

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن "النجم" المذكور في سورة "النجم": " وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى "[١٠٥] هو الثريا [١٠٦] ، ويشير القرطبي إلى أن العرب تسمى الثريا نجمًا ، وأنه قد يكون النجم ههنا الزهرة؛ لأن قومًا من العرب كانوا يعبدونها[١٠٧]

وفي قوله تعالى : " وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى "[١٠٨] ، نجد تخصيص الشعرى في أن يأتي في سياق العبودية لله ، وأنه مخلوق من مخلوقاته ، لذلك دلالته الرمزية ، فقد كان مقدسا ومعظما عند العرب ، ونسجوا حوله الأساطير ، ومن ذلك أن العرب كانت " تسمي النيّر العظيم الذي على موضع فم الكلب الأكبر الشعرى العبور ، والشعرى اليمانية أيضا ، وسمته العَبور لأنه عبر المجرة إلى ناحية الجنوب ، وذلك أنهم يزعمون أن الشعريين هما أختا سهيل ، فإن سهيلا تزوج بالجوزاء فنزل عليها ، وكسر فقارها وظهرها ، فهو هارب نحو الجنوب خوفا من أن يطلب بكر الجوزاء ، ولاذ بكبد السماء ، وأن العبور عبرت المجرة إلى سهيل " [١٠٩]

وذكر القرطبي أن أول من عبد الشعرى أبو كبشة أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم من قبل أمهاته، ولذلك كان مشركو قريش يسمون النبي، صلى الله عليه وسلم ابن أبي كبشة، حين دعا إلى الله وخالف أديانهم، وقالوا: ما لقينا من ابن أبي كبشة! وقال أبو سفيان يوم الفتح، وقد وقف في بعض المضايق وعساكر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تمر عليه: لقد أمِرَ أمر ابن أبي كبشة. وكان ناس في الجاهلية يعبدون هذا النجم الذي يقال له الشعرى. وهو النجم الوقاد الذي يتبع الجوزاء، ويقال له المرزم[١١٠] .

وقد كان من لا يعبد الشعرى من العرب يعظمها ويعتقد تأثيرها في العالم ، قَالَ الشَّاعِرُ :

---

(١٠٤) جواد علي : المرجع السابق ١١ / ٥٩

(١٠٥) سورة النجم، الآية ١

(١٠٦) الطبري : المرجع السابق ٢٧/ ٢٤

(١٠٧) القرطبي : المرجع السابق ١٧/ ٨٢ وما بعدها

(١٠٨) سورة النجم ، الآية رقم ٤٩

(١٠٩) الآبى (أبو سعد ، منصور بن الحسين الرازي (المتوفى: ٤٢١هـ) : نثر الدر في المحاضرات ، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م ، ٦ / ٢١٠

(١١٠) الطبري ٢٧/ ٤٥ ، القرطبي ١٧/ ١١٩ وما بعدها .

مَضَى أَيْلُولُ وَارْتَفَعَ الْحَرُورُ وَأَخْبَتَ نَارَهَا الشِّعْرَى الْعَبُورُ

وَقِيلَ: إِنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ فِي خُرَافَاتِهَا: إِنَّ سُهَيْلًا وَالشِّعْرَى كَانَا زَوْجَيْنِ، فَانْحَدَرَ سُهَيْلٌ فَصَارَ يَمَانِيًّا، فَاتَّبَعَتْهُ الشِّعْرَى الْعَبُورُ فَعَبَرَتِ الْمَجَرَّةَ فَسُمِّيَتِ الْعَبُورُ، وَأَقَامَتِ الْغُمَيْصَاءُ فبكت لفقد سهيل حتى غمصت عيناه، فَسُمِّيَتْ غُمَيْصَاءُ لِأَنَّهَا أَخْفَى مِنَ الْأُخْرَى.[١١١]

وذكر بعض العلماء أن "الشعرى" كوكب نير يقال له المرزم، وطلوعه في شدة الحر. وتقول العرب إذا طلعت الشعرى، جعل صاحب النحل يرى. وهما: "الشعريان": العبور، والشعرى الغميصاء. تزعم العرب أنهما أختا سهيل ، وعبدت طائفة من العرب فِي الْجَاهِلِيَّةِ الشِّعْرَى العَبُور ، وَيُقَالُ: إنها عَبَرَت السَّمَاءَ عَرْضاً وَلَمْ يَعْبُرْها عَرْضاً غَيْرُهَا، فأنزل اللَّهُ تَعَالَى: " وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّالشِّعْرى " ؛ أي رَبُّ الشِّعْرَى الَّتِي تَعْبُدُونَهَا .[١١٢] ، ويقول الفخر الرازي : " وفي النجوم شعريان : إحداهما شامية والأخرى يمانية ، والظاهر أن المراد اليمانية لأنهم كانوا يعبدونها " [١١٣]

والمتبادر من الأسلوب الذي ذكرت به الشعرى في الآيات أن القصد من ذلك تنبيه السامعين إلى أن الله عز وجل هو رب ذلك المعبود الذي يسمونه الشعرى ويعبدونه [١١٤]

وهكذا نرى أن معرفة معتقدات العرب في تفسير صورة السماء يكشف كثيرا من أسرار التعبير القرآني ، وفهم ملامح الصورة الفنية في القرآن .

([١١١]) القرطبي : المرجع السابق ١٧/ ١١٩

([١١٢]) ابن منظور : لسان العرب (شعر) ، وانظر : جواد علي : المرجع السابق ١١ / ٥٨ ، و انظر محمود شكري الآلوسي : المرجع السابق ٢ / ٢٣٩

([١١٣]) الفخر الرازي : المرجع السابق ، ٢٨٣/٢٩

([١١٤]) محمد عزتدروزة : التفسير الحديث ، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة ، ١٣٨٣ هـ .

الخاتمة

إن الصورة في القرآن لا تعني الوقوف عند حدود القيم البلاغية القديمة من تشبيهات واستعارات ومجازات ، بل تتجاوز هذه الحدود إلى لغة خاصة تقيم علاقة بين المتلقي والكون ، وبينه وبين العوالم المحيطة به ، وهذا ما بينه الباحث من خلال الأنماط الأربعة للصورة .

أ – الصورة الغيبية التجريدية : التي تختص بعض الصور الفنية في القرآن الكريم بكونها تجريدية ، بحيث ترى الصورة مجردة بعيدة عن أي ملمح من ملامح التجسيد ، وكان هذا أمرا ضروريا وطبعيا فيما يخص شئون العقيدة ، وخير مثال على هذا النمط التصويري صورة الذات الالهية .

ب – الصورة البشرية : نجد في القرآن الكريم عناية بالغة بصورة الإنسان ، فهو يهتم بتصوير الحالات النفسية والوجدانية والاجتماعية الخاصة به ، وقد نرى في الصورة البشرية وصفا للملامح الخارجية للإنسان يعتمد على الوصف المادي الحسي ، وقد تكون الصورة كشفا لدخائل النفس ، فيسبر القرآن الكريم غورها ، ويتعمق شخصيتها ، ومن أمثلتها صور الأنبياء والملوك ، وبعض النماذج النسائية .

ج – الصورة الحيوانية : في القرآن الكريم نماذج عديدة لصور حيوانية مختلفة ، وكائنات من الطبيعة المتحركة ، عرضتها آياته لا من أجل الحديث عن الحيوان ذاته ، بل بما يخدم الفكرة ويجلو المعنى . ومن الصور الحيوانية التي وردت في القرآن الكريم صورة الخيل ، وصورة البقرة ، وصورة الناقة ... الخ .

د – الصور الكونية : لفتت الطبيعة حس الإنسان العربي ، فراح يتأملها ، ويشاهد جمالها ، ويسمع أنغامها ، وينشق من عبيرها ، وقد جاءت الصور الكونية في القرآن الكريم منتزعة من الطبيعة التي عاشها العربي الذي يتلقى القرآن ، ومنها صورة الجبل ، والمطر ، والسماء .

إن الصورة في القرآن لا تعني الوقوف عند حدود القيم البلاغية القديمة من تشبيهات واستعارات ومجازات ، بل تتجاوز هذه الحدود إلى لغة خاصة تقيم علاقة بين المتلقي والكون ، وبينه وبين العوالم المحيطة به ، وإن هذا التناول الجديد للصورة في القرآن ليسهم في التأكيد على وجه من وجوه إعجاز القرآن لم تستطع القراءة التقليدية أن تصل إليه .

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم
٢- الآبى (أبو سعد ، منصور بن الحسين الرازي (المتوفى: ٤٢١هـ) : نثر الدر في المحاضرات ، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م
٣- أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) : مسند الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرين ، مؤسسة الرسالة ، ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .
٤- امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكِندي ، (المتوفى: ٥٤٥ م) : ديوان امرِئ القيس ، تحقيق : عبد الرحمن المصطاوي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .
٥- أبو حيان (محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان) (المتوفى: ٧٤٥هـ) : البحر المحيط في التفسير ، تحقيق : صدقي محمد جميل ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٢٠ هـ .
٦- البخاري (أبو عبدالله محمد بن إسماعيل) : الجامع المسند الصحيح (صحيح البخاري) ،تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة ، ط ١، ١٤٢٢هـ .
٧- د.جواد علي : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار الساقي ، ط ٤ ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م
٨- ديتلف نيلسون وآخرون : التاريخ العربي القديم ، ترجمة / د . فؤاد حسنين علي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .
٩- الزَّوْزَني (حسين بن أحمد بن حسين) (المتوفى: ٤٨٦هـ) : شرح المعلقات السبع ، دار إحياء التراث العربي ، ط ١ ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م
١٠- سعيد حوّى : الأساس في التفسير ، دار السلام – القاهرة ، ط ٦ ، ١٤٢٤ هـ .
١١- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) (المتوفى: ٣١٠هـ) : جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري) ، تحقيق: أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م
١٢- ابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ) : العقد الفريد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٤ه .
١٣- عبد السلام أحمد الراغب : وظيفة الصورة الفنية في القرآن ، فصلت للدراسات والترجمة والنشر – حلب ، ط ١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .
١٤- عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم في مصر والعراق ، مكتبة دار الزمان ، د ت .
١٥- د. عفيف عبد الرحمن : الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديما وحديثا ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، ١٩٨٧م .

١٦- الفخر الرازي (أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن التيمي الرازي) (المتوفى: ٦٠٦هـ) : التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٢٠ هـ .
١٧- فيليب حتي : تاريخ العرب ، ج ١ ، ترجمة إدوارد جرجي، جبرائيل جبور ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٦٥م .
١٨- القرطبي (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي) (المتوفى: ٦٧١هـ) : الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م .
١٩- القشيري (عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك) (المتوفى ٤٦٥هـ) : لطائف الإشارات (تفسير القشيري) ، تحقيق: إبراهيم البسيوني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ت
٢٠- د.كامل سلامة الدقس : وصف الخيل في الشعر الجاهلي ، الكويت ١٣٩٥/ ١٩٧٥.
٢١- ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي) (المتوفى: ٧٧٤هـ): تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) ، تحقيق: سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط ٢ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .
٢٢- د. محمد أبو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق الأدني القديم ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .
٢٣- محمد سعيد مولوي : ديوان عنترة – تحقيق ودراسة ، المكتب الإسلامي ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م
٢٤- محمد الطاهربن عاشور التونسي : التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٨٤ هـ .
٢٥- محمد عزتدروزة : التفسير الحديث ، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة ، ١٣٨٣ هـ .
٢٦- محمود شكري الألوسي ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، المطبعة الرحمانية بمصر ، ط ٢ ، ١٣٤٢ هـ ١٩٢٤م .
٢٧- ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم بن على الأنصاري الإفريقى) (المتوفى: ٧١١هـ) لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤١٤ هـ .
٢٨- د. نصرت عبد الرحمن : الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث ، مكتبة الأقصى، عمان، ط١: ١٩٧٦م.
٢٩- النعماني (أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي) (المتوفى: ٧٧٥هـ) : اللباب في علوم الكتاب ، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م .

٣٠- النيسابوري (نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي) (المتوفى: ٨٥٠هـ) : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلميه ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٦ه.
٣١- وهب بن منبه : التيجَان في مُلوك حِمْيَرْ ، رواية عن عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري ، تحقيق: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية ، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء - الجمهورية العربية اليمنية ، ط ١، ١٣٤٧ هـ
٣٢- وِل ديورَانت : قصة الحضارة ، ترجمة : الدكتور زكي نجيب محمُود وآخرين ، دار الجيل، بيروت - لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

الرسائل الجامعية :

١- عماد علي سليم أحمد الخطيب : الصورة الفنية في المنهج الأسطوري – دراسة تحليلية ، رسالة ماجستير بكلية الآداب بجامعة اليرموك ، المملكة الأردنية ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .
٢- محمد محمود صالح قاسم : التشكيل البلاغي للصورة الفنية في القرآن الكريم ، رسالة دكتوراه بكلية الآداب جامعة اليرموك ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م .

الدوريات :

- د. سعيد حسون العنبكي : جماليات تلقي الصورة الشعرية في القصيدة الجاهلية ، مجلة الأستاذ ، تصدر عن كلية التربية جامعة بغداد ، ع ٢٠٦ ، م ١ ، ١٤٣٤ه / ٢٠١٣م